المحاضرة الثانية: تطورنظام الحكم العثماني في الجزائر 1514 – 1830م

أ- عصر الباي لربايات (أمير الأمراء 1514 1587 م):

يمثل هذا العصر أزهى عصور الحكم العثماني في الجزائر حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرانية وذلك بفضل التعاون بين فئة "الرياس" في القيادة وأبناء الجزائر، وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجرو الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهارتهم في ترقية المهن والبناء العمراني وتقوية الاقتصاد الجزائري، وقد تميزت هذه المرحلة من الحكم العثماني بما يلي:

1- دام عهد الباي لارباياتمدة 70 سنة .
2- يأتي قرار تعيين الحاكم في الجزائر من طرف السلطان العثماني.
3- كانت السلطة في يد رياس البحر أو جنود البحرية.
4- تحرير برج فنار عام 1529م (ميناء الجزائر القديم) من الإسبان، وتحرير بجاية من الاحتلال الإسباني عام 1555م وإنهاء الوجود الإسباني في تونس عام 1574م.
5- إزدهرت الجزائر في هذه الفترة التي تميزت الحياة السياسية فيها بالاستقرار وتحالف الجميع ضد العدو الإسباني.

ب- عصر الباشوات 1587 - 1659م :

تعتبر هذه الفترة مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر وذلك لأن السلطان العثماني أراد أن يخفف حدة النزاع بين فئة الرياس وفئة اليولداش (الجيش البري) ءوخاصة أن الفئة الأخيرة كانت مستاءة من تمتع فئة الرياس أو جنود البحرية بلقب الباي لا ربايات (أو أمير الأمراء). ولذلك قرر السلطان العثماني إلغاء هذه الرتبة وتعويضها برتبة أخرى هي رتبة الباشا. ونتيجة لهذا التغيير، أصبح السلطان العثماني يقوم بتعيين باشا لمدة 3 سنوات يقوم بإرساله من تركيا ويستدعيه بعد إنتهاء فترة تعيينه، على أن يقوم بإرسال باشا آخر من هناك. لكن المشكل هو أن كل باشا معين في الجزائر لمدة قصيرة لا تتجاوز 3 سنوات كان ينصرف إلى السلب والنهب وجمع الثورة قبل عودته إلى القسنطنطينية، وهذا ما دفع باليولداش أو رجال الجيش البري أن يثوروا على الباشوات ويضعفوا نظام الحكم في الجزائر .وباختصار، فإن هذه المرحلة من تاريخ الجزائر قد تميزت بما يلي:

1- تعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس بعد أن كان هناك حاكم واحد للمنطقة يوجد مقر حكمه بالجزائر.

2- بدأت تظهر الخلافات والتناقضات بين جنود البحرية الجزائرية (الرياس) وبين جنود البحرية العثمانية وخاصة عند ما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لمصالح الإمبراطورية العثمانية.

3- برزت قوة "الرياس" أو قوة رجال البحرية الجزائرية إلى درجة أن دول أوروبا أصبحت تخشى الجزائر وتسعى لإقامة علاقات تعاون معها.

4- تجدد التصادم والصراع بين جنود البحرية وجنود القوات البرية (اليولداش) وخاصة أن رجال البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأروبية، وهذا الصراع هو الذي ساهم في أضعاف الدولة الجزائرية.

ج- عصر الأغوات 1659 - 1671 م :

يعتبر هذا العهد من أقصر العهود وذلك نظرا لإقدام قادة الجيش البري (اليوليداش)على خلع الباشا وتعويض هذا القائد بقائد آخر من فئتهم أطلق عليه إسم "الآغا". وفي الحقيقة أن هذا الانقلاب قد جاء بمثابة انقلاب على "الباشا" المعين من طرف الإمبراطورية العثمانية والمدعوم من طرف فئة "الرياس"، ولكي لا يستأثر "الأغا" بالسلطة فقد تقرر أن يكون الحكم ديمقراطيا، أي يستعين الحاكم بالديوان العالي الذي كان يضم في البداية أعضاء الفرق العسكرية البرية، ثم توسعت العضوية فيه بحيث أصبح يضم ممثلين عن فئة "الرياس" وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر. وتماشيا مع هذه الخطة، فإن الجيش البري هو الذي أصبح يعين "الأغا" حاكما للجزائر لمدة سنتين، يترقى بعدها إلى رتبة "آغا شرف" ويحل محله "أغا" آخر. وهكذا إستفحل الصراع بين الأغوات من جهة، والرياس من جهة أخرى، وكانت النتيجة هي انتشار الفوضى وانعدام الأمن، واستياء تركيا من انفصال حكام الجزائر عنها وقطع كل المساعدات عنهم.

وفي عام 1671 م إنهار نظام الأغوات وحل محله نظام الدايات وباختصار، فإن هذه الفترة القصيرة من نظام حكم الأغوات في الجزائر قد تميزت بما يلي :

1- إضمحلال نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية في الجزائر.

2- استفحال الصراعات المحلية سواء بين ضباط الجيش البري أوضباط الجيش البحري، وفشل الأغوات في إنشاء نظام سياسي ديمقراطي ناجح.

د- عصر الدايات : 1671 – 1830م:

لقد استفاد حكام الجزائر من تجارب الحكم السابقة في هذا البلد بحيث حاولوا ترضية السلطان العثماني وتقوية مركز الحاكم (الداي) وذلك عن طريق تعيينه في منصبه مدى الحياة، بناء على اقتراح من الديوان العالي وتعيين رسمي من طرف السلطان العثماني، وبكلمة مختصرة فإن الجزائر قد أصبحت دولة مستقلة عن تركيا وخاصة أن الداي أصبح ينتخب من طرف الديوان العالي (المجلس) الذي صار بمثابة برلمان في عصرنا الحالي، والسلطان العثماني لا يلعب أي دور في اختيار داي الجزائر وينحصر دوره في إصدار مرسوم أو فرمان لتثبيت اختيار الديوان العالي بالجزائر.

وفي حالة شغور المنصب، فإن الديوان العالي هو الذي يختار خليفته بنفس الأسلوب السابق الذكر، وباختصار يمكن القول أن الخلافة العثمانية قد احتفظت لنفسها بسلطات شكلية في الجزائر تمثلت

بصفة خاصة في الدعاء للسلطان العثماني في صلاة الجمعة، والاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب بحيث تقوم الجزائر بتقديم المساعدة العسكرية للبحرية التركية في حالة تعرضها لاعتداء خارجي كما حصل في معركة نافارين سنة 1827م.

وبدون شك فإن عصر الدايات (1671 - 1830م) هو عصر القوة العسكرية، والحاكم هو الذي يختار وزراءه بحرية تامة ويشكل مجلس الدولة بأسلوبه الخاص، كما تمتعت الدولة الجزائرية في عهد الدايات بحرية العمل في المجال السياسي وبنت جيشا قويا، وكانت لها ميزانية مستقلة لا تقل أهمية عن ميزانيات الدول القوية في تلك الفترة، وقد كان الداي يعقد المعاهدات باسم الجزائر ويبعث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى ويوافق على اعتماد القناصل في الجزائر بدون مشاورة تركيا، ويعلن الحرب، ويستعمل العملة الخاصة بالجزائر، وهذه العوامل كلها تبين استقلالية القرار الجزائري.

وأهم حدث تاريخي ميز هذه المرحلة هو تمكن حكام الجزائر من القضاء على الوجود الإسباني نهائيا في الجزائر وخاصة في سنة 1792م حيث تمكن قادة الجزائر من طرد الجيش الإسباني من وهران والمرسى الكبير.

هـ- التنظيم الإداري والسياسي للجزائر خلال مرحلة الحكم العثماني:

أولا: التنظيم الإداري:

وباختصار، فإن السلطة المركزية بالجزائر العاصمة هي التي كانت توجه دفة الأمور السياسية بالبلاد. وحسب التقسيم الإداري الموجود في عهد الدايات، فإن الجزائر كانت مقسمة إلى أربعة مقاطعات إدارية تتمثل في الآتي :

1 - دار السلطان : وهي عبارة عن مقاطعة إدارية توجد في الجزائر العاصمة ونواحيها، يوجد بها مقر نائب السلطان العثماني أو الداي، وتمتد هذه المقاطعة من مدينة دلس شرقا إلى مدينة شرشال غربا، ويحدها من الجنوب بايليك التيطري .

2- بايليك الشرق : ويعتبر من أكبر الولايات الموجودة في الجزائر حيث أنه يمتد من الحدود التونسية شرقا حتى بلاد القبائل الكبرى غربا، ويحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء. وكانت مدينة قسنطينة عاصمة هذه المقاطعة.

3- بايليك الغرب : الذي كانت عاصمته مازونا حتى سنة 1710م ثم مدينة معسكر، وعندما استرجعت مدينة وهران من الإسبان في سنة 1792م صارت هي عاصمة هذه المقاطعة، وكانت هذه المقاطعة تمتد من

الحدود المغربية غربا إلى ولاية التيطري شرقا، ومن البحر شمالا إلى الصحراء جنوبا، ويأتي في الدرجة الثانية من ناحية المساحة، أي بعد ولاية قسنطينة.

4- بايليك التيطري : كانت عاصمته مدينة المدية، وهو أصغر ولايات القطر، يحده من الشمال سهل المتيجة، ومن الجنوب الصحراء.

ثانيا: التنظيم السياسي:

يمكن القول بأن وحدة التراب الجزائري قد تدعمت بشكل ملحوظ خلال مرحلة الحكم العثماني، خاصة بعد تحرير جميع المناطق التي كانت تحتلها القوى الصليبية، ويمكن تلخيص أهم هياكل النظام السياسي للجزائر في الفترة الأخيرة من العهد العثماني (عصر الدايات) فيما يلي:

1- الداي: وهو رئيس الدولة، والقائد العام للجيش في البلاد، والمسؤول الأول عن السياسة العامة في الجزائر، ويسهر على تطبيق القوانين العسكرية والمدنية، ويتم انتخابه من طرف أعضاء الديوان العالي، الذي يتكون من رؤساء الوحدات العسكرية وبعض كبار مسؤولي الدولة، ويتراوح عددهم ما بين 80 و 300 عضو.

2- الديوان (مجلس الوزراء): كان ديوان الداي هو الساعد الأيمن لرئيس الدولة، ويضم الشخصيات المقربة إليه، ويعتمد عليه الداي في تنفيذ سياسة الدولة التي يقودها الداي، وكانت له اجتماعات يومية لدراسة المسائل العادية، أما اجتماع يوم السبت فكان يخصص لدراسة المسائل ذات الأهمية، وقدرت المصادر التاريخية عدد أعضاء هذا الديوان ب 35 عضو من الشخصيات السياسية والعسكرية، بالإضافة إلى القاضي والمفتي.

3- الخزناجي: وكان بمثابة وزير المالية، حيث كان مسؤولا عن خزينة الدولة.

4- الآغا: وهو قائد الجيش البري، بما في ذلك فرق الإنكشارية، ووحدات الخيالة العرب، والمتطوعون.

5- وكيل الخرج: وهو المكلف بالشؤون الخارجية مع الدول الأجنبية، وكل ماله علاقة بالتسليح ومواجهة الخصوم في عرض البحر الأبيض المتوسط.

6- الباش كاتب: هو الأمين العام للحكومة حيث يتولى تسجيل وصياغة جميع القرارات التي يتخذها الديوان في اجتماعاته اليومية تحت إشراف الداي.

وقد عين على رأس كل ولاية (باليك) واليا أطلق عليه لقب الباي وكان نائبا للداي في حكم الولاية كما كان يتمتع بصلاحيات واسعة، ويستعين الباي بمجموعة من الموظفين السامين مثل – الخليفة: والذي يعتبر نائبا للباي- قائد الدار: وهو المسؤول عن حراسة المدينة، ودفع رواتب الجند – آغا الدائرة : وهو قائد فرسان العرب التابعين للدولة – الباش كاتب: وهو كاتب الداي – الباش سيار: وهو الذي يقوم بمهمة نقل الرسائل بين الباي والداي.

مصادرومراجع المحاضرة:

- عمار بوحوش، تاريخ الجزائر السياسي من البداية لغاية 1962، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

- جون وولف، الجزائر وأوربا (1500-1830)، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1515-1543)، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980.

- نصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

- أبو القاسم سعد الله، أضواء تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

- فرناند بروديل، البحر المتوسط المجال والتاريخ، تر: عمر سالم، منشورات وزارة الثقافة تونس، 1990.

- جون وولف، الجزائر وأوربا (1500-1830)، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492- 1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1965.

- محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، ج01، الجزائر، 1985.

- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،مكتبة الحياة، بيروت، 1980.

- أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)، دار البصائر للنش روالتوزيع، الجزائر، 2011.

- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت، 1988.